جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة البصرة-كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة

مجلّة أبحاث البصرة
((للعلوم الإنسانيّة))

سلسلة العلوم الإنسانية
مجلة فصلية محكمة ومفهرسة

تصدر عن كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة البصرة
العراق - البصرة

رئيس هيأة التحرير: أ.د. علاء عبد الحسين البعبادي

مدير هيأة التحرير: أ. مهدي محسن محمد

إدارة المجلة: باحث أقدم: ساهرة مزهر لفتة

عدد خاص بوقائع المؤتمر الدَّوْلِيّ الإلكترونيّ الثالث لقسم اللّغة العربيّة بجامعة البصرة / كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة المعنون بـ(المعنون بالتراث اللغوي والأدبي في البصرة حتى نهاية القرن العاشر الهجري، قراءة معاصرة جديدة)

المنعقد بتاريخ 11/ أيّار / 2022

(مواقع واشتراكات المجلة في المستوعبات العلمية)

-موقع المجلة الرسمي -https://bhums.uobasrah.edu.iq

-ISSN Online 2707-

-الترقيم الدولي

3599

-ISSN Print 2707-3580

-معامل التأثير العربي

-(AIF)= (0,94)

-معامل التاثير والاستشهادات (أرسيف) (

-(0.0473)

-المجلة مسجلة في الموقع العالمي لابحاث العلمي Google -

https://scholar.google.com

-موقع المجلات الاكاديمية العراقية -

www.iasj.net

-رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 1183 لسنة 2009

(www.udledge.com)

1) i-Journals(www.ijournals.my)

2) i-Focus (www.ifocus.my)

(التعريف بالمجلة)

1. مجلّة محكّمة ومتخصّصة ,فصليّة, تصدر عن كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة/جامعة البصرة/وزارة التعليم العالي والبحث العلميّ العراقيّة.

2. تطمح أنْ تكون مصنفّة ضمن أهم القواعد والبيانات العالميّة وأنْ تكون مرجعاً علمياً للباحثين والدارسين في العلوم الإنسانيّة ووصول أبحاثهم إلى أوسع نطاق من العالم.

(حقوق الطبع محفوظة للناشر):

1. جميع حقوق الطبع محفوظة لجامعة البصرة /كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة.
2. لا يجوز نشر أي جزء من هذه المجلّة أو اقتباسه من دون الحصول على موافقة خطيّة مسبقة من رئيس هيأة التحرير.
3. ما يرد في المجلّة يعبر عن آراء أصحابها ولا يعكس آراء هيأة التحرير أو سياسة جامعة البصرة.

للاستفسار والتواصل مع هيأة تحرير المجلة:

-Email:magazinbasrah@gmail.com

- +964 7736024869

هيأة التحرير:

ت	الاسم واللقب العلمي	مكان العمل
.1	أ.د. عبد الباسط خليل محمد	جامعة البصرة-كلية التربية للعلوم الإنسانية قسم علوم القرآن
.2	أ.د. إبراهيم فنجان صدام	جامعة البصرة-كلية التربية للعلوم الإنسانية قسم التاريخ
.3	أ.د. حامد قاسم ريشان	جامعة البصرة-كلية التربية للعلوم الإنسانية قسم الإرشاد النفسي والتوجيه التربوي
.4	أ.د. مرتضى عباس فالح	جامعة البصرة-كلية التربية للعلوم الإنسانية قسم اللغة العربية
.5	أ.د. علاء حسين عودة	جامعة البصرة-كلية التربية للعلوم الإنسانية قسم اللغة الانكليزية

.6	أ.د. عباس عبد الحسن كاظم	جامعة البصرة-كلية التربية للعلوم الإنسانية قسم الجغرافية
.7	أ.م.د. نبيل كاظم نهير	جامعة البصرة-كلية التربية للعلوم الإنسانية قسم العلوم التربوية والنفسية
.8	أ.د. محمد الخزامي عزيز	مصر - جامعة الفيوم - كلية الآداب قسم الجغرافية
.9	أ.م.د. رسول بلاوي	إيران- جامعة خليج فارس- بوشهر
.10	أ.د. جمال الدين إبراهيم محمود العمرجى	مصر- جامعة السويس - كلية التربية
.11	أ.د. عبد الله أبراهيم	تركيا – ناقد وأكاديمي
.12	أ.د. محمد سليمان مجلي بني خالد	الأردن – جامعة آل البيت – كلية العلوم التربوية
.13	أ.د. محمد نجيب مراد	الجامعة اللبنانية – كلية الآداب

((شروط النشر في مجلة أبحاث البصرة (للعلوم الإنسانية))

✓ تنقسم ضوابط النشر إلى قسمين:

اولاً:عند تقويم البحث (ما قبل الحصول على قبول النشر):

1) يكون ترتيب الصفحة الأولى بالشكل التالي:العنوان في أعلى الصفحة ويندرج تحته فقرة الغرض من البحث هو:(مستل (رسالة ماجستير),(أطروحة دكتوراه),أو للترقية,أو غير ذلك)ثم(أسم الباحث أو الباحثين,الجامعة,الكلية والقسم).

2) خلاصة البحث باللغة العربية بالنسبة للأقسام كافة -ماعدا قسم اللغة الانكليزية- لا تزيد عن خمسة اسطر وتترجم إلى اللغة الانكليزية من قبل وحدة الخدمات في قسم اللغة الانكليزية حصراً,وتتضمن (ترجمة العنوان والملخص وأسماء الباحثين) وتختم وتجلب مع البحث النهائي.أما بالنسبة لقسم اللغة الانكليزية كذلك تتم ترجمة العنوان وأسماء الباحثين والملخص باللغة العربية.

3) يكون نوع الخط للبحث (Simplified Arabic) للغة العربية , و(Times New Roman) للغة الانكليزية.ولا يقبل أي خط أخر.ويعتمد برنامج (word 2007) حصراً ولا يقبل غير ذلك.

4) حجم الخط (14) للمتن و(16) للعناوين و(12)للهوامش,ويكون تباعد الأسطر(1,5سم) وحواشي الصفحة الأربعة (2,5) من جميع الجهات.

5) الترقيم يكون في أسفل الصفحة مع تجنب أي علامات أو إطارات أو خطوط.

6) تكون هوامش ومصادر البحث كلها في نهايته.

7) عدم استخدام الخطوط والرموز الجاهزة خصوصاً الآيات القرآنية وكلمة (صلى الله عليه واله وسلم) أو (عليه السلام) أو (رضي الله عنه) وغيرها.

8) يسلم الباحث لترويج البحث مبلغاً قدره (40,000) أربعين إلف دينار مع أربع نسخ ورقية من البحث لكافة الأقسام باستثناء قسمي اللغة العربية والانكليزية ثلاث نسخ مع مبلغ قدره (30,000) ثلاثين إلف دينار.

✓ ثانياً: عند رجوع البحث من المقومين وقبوله (للحصول على قبول النشر):

1) عند اكتمال عملية تقويم البحث من قبل المقومين يعاد البحث إلى الباحث في حال كانت نتيجة التقويم (صالح للنشر) لغرض أجراء التعديلات المثبتة عليه,ولا يمنح قبول النشر ألا بعد إن يسلم الباحث نسخه نهائية ورقية معدلة إضافة إلى نسخة الكترونية بصيغة(word)على قرص(CD).مع ضرورة جلب النسخ الأصلية التي أجريت عليها التعديلات وأن يكون البحث بمجمله محفوظ في ملف واحد ويدفع أجور النشر المترتبة بحسب التعليمات والتفاصيل أدناه:

أ) بالنسبة لمستلات بحوث طلبة الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) تحسب أول (25) صفحة بـــ (3000) ثلاث ألاف دينار إما ما يزيد عن ذلك فتحسب الصفحة بـــ (4000) أربعه ألاف دينار.

ب) إما بالنسبة لبحوث الترقيات وغير ذلك فتحسب أول (25) صفحة بـــ (4000) آلاف دينار وما يزيد عن ذلك من صفحات فتحسب بـــ (5000) خمسة ألاف دينار.

2) تسقط مطالبة الباحث باسترجاع مبلغ التقويم أو مبلغ النشر أذا تم إرسال البحث للمقومين.

3) تلفت المجلة انتباه السادة الباحثين إلى أنها **ملزمة** بنشر كافة البحوث التي تمنحها قبول نشر وتم تسديد مبالغ نشرها بالوصولات, ولا تستقبل البحوث التي يروم أصحابها الحصول على **قبول نشر فقط** دون استعدادهم لدفع مبالغ نشرها في المجلة.

تعتذر إدارة المجلة عن استلام أي بحث لا تنطبق عليه الضوابط أعلاه.

(التراث اللغوي والأدبي في البصرة حتى نهاية القرن العاشر الهجري، قراءة معاصرة جديدة)

المؤتمر الدَّوْلِيّ الإلكترونيّ الثالث لقسم اللّغة العربيّة بجامعة البصرة / كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة المنعقد بتاريخ 11/ أيَّار- مايو / 2022

جامعة البصرة

كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة

برعاية السيّد رئيس جامعة البصرة (أ.د.سعد شاهين حمّادي)

وبإشراف عميد كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة(أ.د. حميد سراج جابر)

وتحت شعار (البصرة قصيدة العراق , ومجد التراث العربي)

يقيم قسم اللّغة العربيّة مؤتمره الدَّوْلِيّ الإلكترونيّ الثالث المعنون

بـ(المعنون بالتراث اللغوي والأدبي في البصرة حتى نهاية القرن العاشر الهجري، قراءة معاصرة جديدة)

مَحَاوِر المؤتمر

- **الدَّراسات اللّغويّة وقضايا العربيّة في مجال (تطوير اللّغة ، واتّساع اللّغة ، والتَّعريب ، واجتراح المصطلحات التي يقتضيها التقدّم العلميّ، وتنمية الألفاظ ، فضلاً عن مشكلة الفهم وتدنّي المستوى) .**
- **أثر اللّغة العربيّة في الفهم الصَّحيح للقرآن الكريم .**
- **الجهود الأدبيّة والنَّقديّة لدى القدماء والمُحْدَثِيْنَ ، وأثرها في مواجهة العربيّة ومشكلاتها،ودورها في انضاج المُدْرَك المعرفيّ للمجتمع.**
- **اللّغة العربيّة وواقع التَّواصل الإجتماعيّ.**

أهداف المؤتمر

- **بيان أهمية اللّغة العربيّة ، وتوضيح دورها في انفتاح الوعي والفهم ، والإدراك المعرفيّ والسّلوكيّ للمجتمع الأكاديميّ خاصة ، والمجتمع بفئاته الأخرى عموماً.**
- **الوقوف على أهم المشكلات ، التي تؤثّر سلباً على سلامة اللّغة العربيّة نظريّاً وعمليّاً.**

- **إيجاد الحلول والسُّبل الناجحة لمعالجة تلك الأمور بجهودٍ لغويّة وأدبيّة قائمة على أساس الأبعاد العلميّة والعمليّة.**

لجان المؤتمر

اللجنة المشرفة	1. أ.د حميد سراج جابر 2. أ.د أسعد عباس هندي 3.أ.م.د نوفل كاظم مهوس
اللجنة العلميّة	أ.د. فاخر هاشم الياسري أ.د. سالم يعقوب يوسف أ.د. سوادي فرج مكلف أ.د. نضال إبراهيم ياسين أ.د. حامد ناصر عبود أ.د. حسين عودة هاشم أ.د. جبار عودة بدن أ.د. سليمة جبار غانم أ.د. علي مطشر نعيمة أ.د. نجوى محمد جمعة أ.م.د. حسين مزهر أ.م.د. علي عبد رمضان أ.م.د.ميثاق حسن عبد الواحد أ.م. د. سهير كاظم حسن
اللجنة التحضيريّة	1أ.د. خالد عبد الكاظم عذاري أ.د. علي جاسب عبد الله أ.م. د. بشير سعيد سهر أ.م.د. خلود شهاب أحمد أ.م.د. عبد الرحمن عبد الله أحمد أ.م.د. لؤي طارق علي م.د. هشام يونس جاسم م.د. مازن مالك خلف م. عبد الله محمد راشد

اللجنة الإعلاميّة	1أ.د. مرتضى عباس فالح أ.م.د. صباح عيدي عطية أ.م.د. وداد يعقوب سلمان أ.م.د. أنوار عزيز جليل م.د.عباس فالح حسن م. عبد الله محمد راشد
اللجنة التنسيقيّة	أ.م.د. هيثم كاظم صالح أ.م. نجاة علوان حسين م.د. هند أكرم عبد الرحمن م.د. سناء جميل حنون م.د. إيناس عبد الرحيم رمضان م.د. آمنة أحمد عباس م.د. جنان عايد محمد م.د. أحمد قاسم حميد م.م. زينة صاحب محمود م.م. حوراء إسماعيل جاسم
لجنة الاستقبال	أ.م.د. بشير سعيد سهر م.د. منتهى عناد تمل م.د. أثير حميد محمد أ.م.د. فرحة عزيز محسن م.د. عباس فالح حسن م. ميعاد زعيم هنون

ثبت المحتويات

ت	عنوان البحث	اسم الباحث	الصفحات
1-	دلالة مصطلح (معاني القرآن) وتحققه في معاني قطرب (ت214هـ)	أ.د سعيد جاسم الزبيدي	25-11
2-	نشأة العلوم العربية	محمد بن سالم بن خلفان المسلمي	35-26
3-	المبرد من روافد اللغة	د. عبدالله بن مبارك السعدي	48-36
4-	التداخل والتوليد وأنساقهما التداولية الثقافية عند البصريين وغيرهم.	أ.م. د . حسين علي جبار القاصد	64-49
5-	التوظيف اللُّغوي للشاهد الشعريّ عند الجاحظ (ت 255 هـ) (كتاب البيان والتبيين مثالاً)	أ.د. سليمة جبار غانم	87-65
6-	كتاب النبات للاصمعي (ت 216 هـ) دراسة في البنية والدلالة	أ.م.د خلود شهاب	102-88
7-	البناء الفني لمقدمة قصيدة المدح في شعر الفرزدق	أ.م.د. صباح عيدي عطية	111-103
8-	جهود علماء تفسير القرآن في الحفاظ على أصالة اللغة العربية وتراثها (المفسر البصري قتادة السدوسي نموذجا)	أ.م. د. فلاح عبد الحسن هاشم	124-112
9-	ما انفرد به أبو عمرو بن العلاء في قراءات كتاب السبعة لابن مجاهد وأثره في تفسير النص القرآني	د. مخلد جبار سلطان	142-125

جهود علماء تفسير القرآن في الحفاظ على أصالة اللغة العربية وتراثها
(المفسر البصري قتادة السدوسي نموذجا)

أ.م. د. فلاح عبد الحسن هاشم
جامعة البصرة كلية التربية للعلوم الإنسانية قسم علوم القرآن

الملخص

يهدف البحث إلى بيان أهمية القرآن في حفظ اللغة العربية أولاً ومن ثم وفي طول ذلك بيان الجهود التي بذلها علماء القرآن خصوصاً علماء التفسير وعلماء معاني القرآن وغيرهم وأهمية تلك الجهود في المحافظة على اللغة العربية وتراثها وأصالتها، وكان من بين هؤلاء العلماء الذين أسهموا في ذلك علماء العراق البصريين، وأبرزهم جهود الإمام قتادة بن دعامة السدوسي البصري.

اتسم البحث بمنهج وصفي ولم يكن معيارياً، ولهذا خلا من النقد وما يجب أن يكون، والهدف الأساس منه هو إبراز وتوثيق جهود المفسرين وإسهامهم في حفظ اللغة العربية وتراثها.

وكان المحور الأول في هذه الدراسة في أثر القرآن في المحافظة على أصالة اللغة العربية، والمحور الثاني في أثر علماء القرآن ممن عرف عنهم تفسير القرآن، والمحور الثالث في خصوص المفسر قتادة بن دعامة السدوسي البصري وأهمية جهوده العلمية والمعرفية خصوصاً القرآنية وما تعلق منها بلغة القرآن في الحفاظ على أصالة اللغة العربية وتراثها.

كلمات دلالية: (جهود) (علماء القرآن) (علماء البصرة) (تفسير قتادة).

المبحث الأول: أثر القرآن الكريم في الحفاظ على أصالة اللغة العربية

القرآن كلام الله وهو في اللغة – في أرجح الأقوال– لفظ مهموز، ومشتق، سواء كان مصدر قرأتُ، فهو مهموز اللام من قرأ يقرأ قراءة وقرآناً، على وزن فعلان كالرجحان والغفران والشكران، سمي الكتاب المقروء بالقرآن، من باب التسمية بالمصدر وإرادة اسم المفعول[i]. أو كان وصفاً على وزن فعلان، مشتق من القَرْء، بمعنى الجمع، ومنه: قرأت الماء في الحوض أي جمعته. قال أبو عبيدة: وسمي بذلك؛ لأنه جمع السور بعضها إلى بعض. وقال الراغب: لا يقال لكل جمع قرآنٌ، ولا لجمع كل كلام قرآن، قال وإنما سمي قرآنا لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة. وقيل: لأنه جمع أنواع العلوم كلها[ii].

وفي الاصطلاح هو وحي الله المنزل على النبي محمد (ص) لفظاً ومعنى وأسلوباً المكتوب في المصاحف المنقول عنه بالتواتر [iii]. وهذا الوحي نزل بلسان عربي مبين، كما يقول الله تعالى: **(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)**[iv].

ومن المعلوم أن اللغة التي كتب بها القرآن هي اللغة العربية التي شرفها الله تعالى بأن تكون وعاء للقرآن ولكلامه ووحيه، وبهذا الاختيار أتيح لألفاظ هذه اللغة أن تؤدي معاني الوحي الإلهي وتبينه للناس، فكانت ألفاظ هذا القرآن – كما يقول الراغب الأصفهاني– لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمه، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة[v].

وفي هذا السياق يقول الشاطبي: "وإن كان النبي (ص) بعث للناس كافة؛ فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألسنة في هذا الأمر تبعا للسان العرب، وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عليه، وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها"[vi].

واختيار الله تعالى لتكون العربية لغة الوحي ولغة قرآنه وكلامه ما كان إلا لأن في هذه اللغة عناصر خاصة كانت تؤهلها لتكون ذلك الوعاء، فقد حظيت بصفات وطابع خاص بها يميزها عن غيرها، فهي أكثر اللغات السامية تأثيراً في أصول الكلمات والمفردات، فقد اشتملت على جميع الأصول التي اشتملت عليها أخواتها من اللغات السامية أو على معظمها، مضافاً إلى هذه الميزة، قد جمعت من المفردات والمترادفات ما لم تجتمع للغة سامية أخرى في مختلف أنواع الكلمات، اسمها وفعلها وحرفها[vii].

كما أنها أوسع اللغات مدى– كما يقول الرافعي– وأغزرهن مادة، وأوفاهن بالحاجة الحقيقية من معنى اللغة؛ لكثرة أبنيتها، وتعدد صيغها، ومرونتها على الاشتقاق، بنحو أفضى إلى استغراق اللغات بجملتها، مع أنها أقل هذه اللغات أوضاعًا، حتى إن المستعمل منها لا يتجاوز ستة آلاف تركيب[viii].

ويؤكد هذه الحقيقة ابن فارس بقوله: إن "لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها، قال تعالى: **(بلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)**[ix] فوصفه بأبلغ ما يوصف به الكلام، وهو البيان، وقال تعالى: **(خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)**[x] فقدم ذكر البيان على جميع ما توحد الله بخلقه، فلما خص تعالى اللسان العربي بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه"[xi].

ومع هذا الخصائص المهمة للغة العربية لا يمكن **لذاتها** أن تحافظ على نفسها من تأثيرات التطور الزماني، فإن كل لغة خاضعة في بنيتها واستمرارها للتطور، ولا يمكن للسنن التاريخية أن تستثني أي لغة من التأثير مهما علا شأنها، فلابد أن يطالها هذا التأثير، ولا يقال إن العربية مستثناة من ذلك لكونها لغة إلهية، بزعم أن أصل اللغة العربية كانت لغة آدم في الجنة؛ فلما عصى ربه سلبه العربية وأعطاه السريانية ثم تاب فردها إليه[xii]. فإن ذلك من المغالاة يجب تجنبه.

نعم ثمة إجماع على أن إسماعيل عليه السلام أصل العربية المضرية؛ كما قال ابن جني: "وإنما صارت لغتهم الأصل" لأن العربية أصلها إسماعيل عليه السلام وكان مسكنه مكة"[xiii]. لكن هذا لا يعني بالضرورة أن اللغة متوارثة في قريش من عند إسماعيل عليه السلام وتكون قد بقيت زهاء خمساً وعشرين قرناً، وهي جامدة على وتيرة واحدة، فهو رأي لا يصمد أمام العقل وإنما سوغه من يريد إعطاء اللغة صفة إلهية لمنزلة القرآن منها، وما كان إلهيا فهو كذلك إلى الأبد؛ غير أن التاريخ لا دين له في نسقه الزمني وإنما التحول والتنوع من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

نعم لا يبعد أن لسان إسماعيل بالعربية وضع أصلها بما أضاف من لغة "جرهم" الى لغة قومه، وبذلك انطلق لسانه من الكلام في مذهب أوسع منحى وأوضح دلالة، وهذا معنى ما ورد في الحديث من أن" "أول من فتق لسانه بالعربية هو إسماعيل" وعلى هذا يصح الادعاء إن أول تهذيب حدث في العربية يرجع الى عهد إسماعيل[xiv].

ثم توسع التهذيب والتنقيح لهذه اللغة العظيمة في عهد قريش وهي القبيلة الأخيرة في تاريخ الفصاحة، وذلك أن قريشا كانوا ينزلون من مكة بواد غير ذي زرع وكانت الكعبة شرفها الله وجهة العرب وبيت حجهم قاطبة في الجاهلية فكان لكل قبيلة منهم صنم يحجون إليه حتى وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات، مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها، فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوه منها، فارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها، وبذلك مرنوا على الانتقاد؛ حتى رقت أذواقهم، وسمت طبائعهم، وقويت سلائقهم؛ وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبينها إبانة عما في النفس[xv].

وعندما نقارن تأثير التطور في سائر اللغات غير العربية نجد أن هناك تغيراً كبيراً حدث على جميع المستويات خصوصاً في الدلالات، كاللغة الإنكليزية التي يعسر فهم دلالات نصوصها القديمة للجيل الحاضر، بل هناك لغات اندثرت تماماً بفعل التطور مثل اللغة الفينيقية واللغة المصرية القديمة الهيروغليفية واللغة الآشورية[xvi].

إلا أن اللغة العربية لبثت محتفظة بكل مستوياتها اللغوية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وهذا الصفة لم تكن لولا القرآن الكريم.

إن ارتباط اللغة العربية بالقرآن جعلها محفوظة بحفظ القرآن باقية ببقائه، كما قال الله تعالى: **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)**، ودل هذا الوعد الإلهي أن اللغة التي جسدت كلام الله تعالى هي متعلق هذا الوعد العظيم. هذه اللغة بما تحمل من عناصر تركيبية ونحوية وبلاغية وفصاحة وجمال.

بل إن عالمية اللغة العربية كان بفضل القرآن والإسلام، وقد أكد هذا المعنى بعض المستشرقين مثل الألماني نولدكه بقوله: "إن العربية لم تصر لغة عالمية حقاً إلا بسبب القرآن والإسلام، وبهذا صارت العربية مقدسة"[xvii].

ولو أردنا أن نرصد تأثير القرآن في هذه اللغة، يمكن أن نحدد ذلك ببعض النقاط:

أولا: زيادة الرغبة في تعلم العربية تبعاً للرغبة في أداء العبادات وفهم القرآن وتعاليمه وإرشاداته، فعندما تكون لغة الدين الإسلامي هي اللغة العربية ولغة نصوصه هي اللغة العربية سواء النصوص القرآنية أم نصوص النبي وأهل بيته وصحابته الذين نقلوا الدين بمروياتهم، حتماً سيسهم ذلك في تعلم تلك اللغة العربية. يقول الرازي: "تفتقر سائر اللغات، خصوصية انفردت بها اللغة العربية، هي شدة حاجة الناس الى معرفتها، تبعاً لحاجتهم لمعرفة القرآن وألفاظه وأحاديث رسول الله والأئمة والصحابة والتابعين وما موجود في الشريعة من الأسماء في أصول الفرائض والسنن مما يكون الجهل به نقص ظاهر على المرء المسلم"[xviii].

وكأن في اللغة العربية سرٌّ خالدٌ يتمثل في الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب أن يؤدى على وجهه العربي الصريح ويحكم منطقاً وإعراباً بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد كالزيغ بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤداها[xix].

ويعدها من روائع تأثير القرآن في اللغة العربية، فإن وجوب أداء القرآن والعبادات بنفس اللغة دون غيرها، ولا يجوز الأداء بالترجمة جعل المسلمون يتجهون إلى أن يرتلوا القرآن بلغته العربية ويحافظوا على تجويده ويفسروه لأبناء لغاتهم.

وهذا بخلاف الكتب المنزلة الأخرى فالتوراة مثلا لا يقرأها بلغتها العبرية إلا أحبار اليهود ونفر ممن تفرعوا لدراستها أما سائر اليهود يقرؤونها بلغة سكان البلاد التي يعيشون فيها. واقتصرت قراءته على العلماء فقط باللغة العبرية والسريانية واليونانية[xx].

ثانياً: أصبح القرآن المعيار والقانون في تنقيح اللغة العربية بيان أصالتها، فيكون مضافاً للشعر وكلام العرب وخطبهم، فكلما ابتعدنا عند العصور الأولى للغة العربية كلما احتجنا إلى قانون وميزان نحتكم له في معرفة صحة الكلام من سقمه، وليس ثمة أجلى من ميزان القرآن وكلامه، "فالجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وقيامها في تربية الملكة وإرهاف المنطق وحل الذوق مقام نشأة خالصة في أفصح قبائل العرب وردها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا فيه وصلتنا به حتى كأنه فينا وحفظها لنا منطق رسول الله ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأن ألسنتهم عند التلاوة تدور في أفواهنا وسلائقهم هي تقيمنا على أوزانها"[xxi].

ثالثاً: الحفاظ على الدين النابع من شعور المسلم يسهم في تضافر جهود علماء العربية وعلماء الإسلام والشريعة في درء الأخطار في وقت التدهور والانحطاط الذي تتعرض له كل اللغات في العالم، وهذه الجهود منعت اللغة العربية من الانصهار في غيرها من اللغات ومنع تسرب كل ما هو دخيل عليها من الألفاظ، ومن هنا لم نجد اللهجات العامية أثرت بشكل بنيوي على اللغة.

ولهذا عندما ما تقهقرت اللغة الدولة العربية، وتقهقرت معها الحضارة الإسلامية خشي أن تندثر لغة تلك الدول وتندمج في لغة الشعوب المغلوبة على أمرها غير أن اللغة العربية قد استعصت على نكبات الدهر بفضل القران[xxii].

رابعاً: ثبات واستقرار اللغة العربية، مزية تفردت بها اللغة العربية عن سائر اللغات وهي أثر من آثار القرآن الكريم، فإنه له الفضل في الاستقرار الصوتي للغة العربية، فالإعجاز في نظم الكلام وفي دقة اختيار المفردات وفي التناسب الصوتي للكلمات مع المعاني المقصودة مضافاً للإعجاز في الفصاحة والبلاغة كل ذلك أسهم بلا شك في استقرار اللغة وثباتها.

وينعكس ذلك بثمرة مهمة تتمثل في تواصل الفهم بين الأجيال للنصوص القديمة والتراثية، بخلاف اللغات الأخرى التي أصبحت صعبة الفهم بمجرد أن مر عليها أكثر من أربعة قرون كاللغة الإنكليزية التي يعسر فهم دلالات نصوصها القديمة للجيل الحاضر.

وتنعكس أيضاً على أن حدود تجاوز اللغة المعاصرة بكل مستوياتها نتيجة التطور عن اللغة العربية الفصحى بخلاف معظم اللغات الحية التي تغير وجهها بصورة أضحت متباينة مع اللغة الأصل تكاد تكون لغة أخرى[xxiii].

خامساً: استحداث مفردات جديدة في معان خاصة لم تكن متوفرة في اللغة العربية المستعملة وقت نزول القرآن، مثل الإيمان والكفر والصلاة والصيام والزكاة والحج والمغفرة، وما تفرع على ذلك من مفردات زخرت بها العلوم الشرعية، مثل التوحيد والفقه والتفسير والنحو والصرف ونحو ذلك، كلها نشأت في رحاب القران الكريم للمحافظة عليه من اللحن ولمحاولة فهمه والوقوف على أسرار معانيه.

يقول ابن فارس في سياق حديثه عن استحداث القرآن لألفاظ ومصطلحات جديدة: " كان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق. وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق. ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافا بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمنا. وكذلك الإسلام والمسلم، إنما عرفت منه إسلام الشيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء. وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر. فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نافقاء اليربوع. ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم: " فسقت الرطبة "إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفسق الأفحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه.

ومما جاء في الشرع الصلاة وأصله في لغتهم: الدعاء. وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود، وإن لم يكن على هذه الهيئة، وكذلك الحج، لم يكن عندهم فيه غير القصد، وسبر الجراح، ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج

وشعائره، وكذلك الزكاة، لم تكن العرب تعرفها إلا من ناحية النماء، وزاد الشرع ما زاده فيها مما لا وجه لإطالة الباب بذكره"[xxiv].

سادساً: أسهم القرآن الكريم بتهذيب اللغة العربية من الألفاظ الغليظة والخشنة والموحشة الثقيلة على السمع مثل كلمة "الهعخع" و"افرنقعوا" وغير ذلك، فعدم استعمالها في القرآن أشعر بعدم بلاغتها وفصاحتها، فندر تداولها، وكل ذلك ببركة القرآن الكريم.

لقد ارتبطت اللغة العربية واندكت بالقرآن اندكاكاً شديداً، يتعسر الفصل بينهما، فأضحت اللغة العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم، وقد اجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته [xxv].

سابعاً: إن تعلق القرآن باللغة العربية أسهم في تدوين علوم القرآن مضافاً لعلوم اللغة العربية، ولولا الإسلام والقرآن لم تحظ اللغة العربية بما حظيت به من خدمة بتدوين علومها وتبويب مسائلها وتتابع أجيال فأجيال على النظر فيها جمعاً وتأليفا وتقعيداً وبحثا عن أوجه جمالها وإعجاز قرآنها وتمجيدا لها وتعظيما ليس من أبنائها فحسب، بل من ذوي الأصول غير العربية الذين هجروا لغتهم الأم وتعصبوا للغة العربية كالجاحظ وأبي حاتم الرازي وأبي علي الفارسي وأحمد بن فارس وأبي حيان التوحيدي الذين رأوا أن اللغة العربية لم يكن اختيارها للقرآن عبثاً بل من رب العالمين ذي الخلق والأمر وكل شيء عنده بحكمة ومقدار[xxvi].

المبحث الثاني: مفسرو القرآن وأثرهم في المحافظة على أصالة اللغة العربية

قلنا في نهاية المحور الأول أن تدوين علوم القرآن كان أحد الآثار التي نتجت عن ارتباط القرآن باللغة العربية؛ فنشأت دراسات علوم القرآن بفروعها المختلفة متعلقةً بالقرآن الكريم؛ فكان القرآن هو محورها، والدراسات المتعلقة بالتفسير كانت الأهم وتمثلت في توضيح آيات القرآن وتبين معناه واستخراج الأحكام الشرعية منه، وقد كان معظم المفسرين من علماء اللغة العربية، وقلما تجد عالماً منهم لم يكن مقرئاً أو مفسراً.

لقد بدأ سؤال النبي (ص) مبكراً في الصدر الأول للإسلام عن تفسير بعض آيات القرآن وغريب ألفاظه، من كبار الصحابة أمثال عبد الله بن عباس وغيره– ممن اهتموا بتفسير القرآن– عن معاني بعض آيات القرآن الكريم، وغريب ألفاظه؛ وبرغم أن هؤلاء الصحابة كانوا يفهمون لغة القرآن، إلا أن فهمهم اقتصر على الظاهر منه، ولهذا ما خفي عنهم كانوا يسألون النبي عنه فيبينه لهم، وقد عكفوا على تعلم القرآن ودراسته دراسة دقيقة حتى قال ابن مسعود: "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"[xxvii].

ومن ثم فبعد وفاة النبي (ص) ظهر علماء كبار في التفسير، كان أبرزهم علي بن أبي طالب (ع) وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت(رض).

وكان ابن عباس منهم يرجع الى اللغة العربية في تفسيره خصوصاً الشعر الجاهلي حيث كان يستشهد به كثيراً، وقد ساعد ذلك سعة اطلاعه على شعر العرب وأيامهم وسرعة حفظه وقوة ذاكرته[xxviii]. وعندما كان يسأل ابن عباس عن آية أو لفظ؛ كان يجيب عن ذلك مستشهداً بأبيات من الشعر العربي، كما نقل عنه قوله: "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب"[xxix] وقوله: "الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها؛ فالتمسنا ذلك منه"[xxx].

وقد ذكر السيوطي في الإتقان كثيراً من هذه الأسئلة وإجاباتها [xxxi]، وجمعها الدكتور إبراهيم السامرائي في كتاب مستقل بعنوان (سؤالات ابن نافع بن الأزرق الى عبد الله بن عباس)، وبذلك يمكن عد تفسير ابن عباس على هذا النحو نواة للمعاجم العربية.

وهكذا بدأت الدراسة في هذا المجال من اللغة بالبحث عن معاني الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم؛ ولذلك نجد التأليفات الأولى في المعاجم كانت تحمل اسم (عريب القرآن). فكانت دراسة القرآن وتفسيره من دواعي الاهتمام بالشعر العربي، وأحد الأسباب التي أسهمت في نشأة المعاجم العربية[xxxii].

وإذا ما أضفنا علم القراءات، ولما لها من ارتباط شديد في توجيه التفسير القرآني، واستظهار المراد من كلام الله تعالى، فإنه بالقراءات المتعددة المتاحة ينكشف المعنى المحتمل، عندئذ يقال لا شك في أن لهذه القراءات أهمية خاصة على مستوى الحفاظ على اللغة العربية؛ فقد حفظت لنا أصوات هذه اللغة عبر أربعة عشر قرناً؛ حتى لتمثل – في معظمها – النطق العربيّ الأصيل؛ ومن هذا المنطلق أمكن تحديد معالم الصوتيات العربية، ومناهجها ونتائجها، فمخارج الحروف وصفاتها محددة مضبوطة وما يعرض لها من ألوان التغير والتفاعل بينها قد أكسبته القراءات صموده مع الزمن وثبوت قوانينه بالدليل العلمي الأكيد[xxxiii].

وجدير بالذكر هنا أن العلماء كانوا يمنعون من لا يجيد اللغة العربية من دخول ساحة التفسير والتصدي له، كما روي عن مالك قوله: "لا أوتي برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً"[xxxiv].

ومرجع ذلك أن القرآن لم يختلف في كيفية أدائه لمعانيه وأهدافه عن أساليب العرب وعن لغتهم، فقد اشتمل القرآن ذات أساليبهم من الحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والحذف والإيجاز وغير ذلك، فأفرغت في هذه اللغة جميع معاني القرآن، وأودعت فيها جميع أسراره، وإن كان ما جاء في القرآن قد أُلبس ثوباً من الجمال والكمال ارتفع به عن سائر الكلام، ولهذا من المنطقي جداً أن من لا يفقه في هذه اللغة لا يمكنه أن يغوص في أعماق تلك الأسرار واللطائف ويتذوق أسرار جمالها[xxxv].

ولو رصدنا مناهج المفسرين لا نجدها ذات نمط واحد، بل كانت متنوعة تبعاً لتنوع ثقافة المفسر وما يحمل من توجهات وعلوم تشبع توجهاته وميوله، فثمة المفسر الذي يتبع منهجاً نحوياً وآخر يتبع منهجا أدبياً في تفسيره للقرآن وتوضيحه له، وهناك المنهج البلاغي والبياني، كما أن هناك المنهج الفلسفي العقلي والعلمي والصوفي وغير ذلك من المناهج المختلفة باختلاف توجهات المفسر.

وما يهمنا هنا هو المناهج ذات الصلة باللغة العربية، فمثل المنهج النحوي والأدبي والبياني والبلاغي، كل هذه المناهج لا شك في أنها تدعم فكرة أن المفسر لعب دوراً مهماً في المحافظة على اللغة العربية وأصالتها، وكانت المناهج اللغوية في التفسير لها امتداد تاريخي ابتداء بمفسري المعتزلة، فقد حرص المعتزلة شديد الحرص على الطريقة اللغوية التي تعد عندهم المبدأ الأعلى لتفسير القرآن وهذا المبدأ يظهر واضحاً في تفسيرهم للعبارات القرآنية التي لا يليق ظاهرها عندهم بمقام الألوهية أو العبارات التي تحتوي على التشبيه والتجسيم فيرجحون معنى آخر يزيل هذا التشبيه فيستدلون على ذلك المعنى بأدلة من اللغة والشعر العربي القديم[xxxvi]. كذلك لم تخل التفاسير القديمة والمهمة مثل تفسير الطبري عن الاهتمام بالشعر العربي، والمذاهب النحوية، وساهم في

ذلك معرفة ابن جرير الواسعة بعلوم اللغة وأشعار العرب، وقد وظف ذلك في استعانته بالشعر القديم بشكل واسع واضح في تفسيره، وعلى سبيل المثال في تفسيره لقوله تعالى: فلا تجعلوا لله أنداداً يقول: قال أبو جعفر والأنداد جمع ند، والند العدل والمثل، كما قال حسان بن ثابت: أتهجوه ولست له بندٍّ فشركما لخيركما الفداء. كذلك نجده يتعرض كثيراً لمذاهب النحويين من البصريين والكوفيين في النحو والصرف، ويوجه الأقوال تارة على المذهب البصري وأخرى على المذهب الكوفي، وهكذا يكثر الاحتكام في مناسبات متعددة الى ما هو معروف من لغة العرب، عندما تمس الحاجة؛ مما جعل الكتاب يحتوي على جملة كبيرة من المعالجات اللغوية والنحوية التي أكسبت الكتاب شهرة عظيمة، وتعد هذه البحوث كنزاً عظيماً ومرجعاً مهماً في بابها[xxxvii].

وهكذا مثل تفسير الفخر الرازي (606هـ) نجده يستطرد في المسائل النحوية والبلاغية في العديد من الآيات القرآنية[xxxviii].

ولو حاولنا تسليط الضوء على من تميز بالمنهج اللغوي لكان الأفضل اختياراً لذلك هو الزمخشري المعتزلي (538 هـ) فهو القمة الأعلى للتفسير الاعتزالي، وعندما نلقي نظرة فاحصة على العمل التفسيري الذي قام به الزمخشري يظهر لنا أن المبدأ الغالب عليه في جهوده التفسيرية كان في تبيين ما في القرآن من الثروة البلاغية التي كان لها كبير الأثر في عجز العرب عن معارضته والإتيان بأقصر سورة من مثله، فكان يحرص كل الحرص على أن يبرز في حلة بديعة جمال أسلوب القرآن وكمال نظمه ويمكن القول أن تفسير الكشاف هو الأوسع مجالا في هذا النحو من الجهود، فهو سلطان هذه الطريقة بلا منازع.

ولا يخفى تأثير الزمخشري على بقية المفسرين الذي جاءوا بعده، فقد استفادوا من تفسيره فوائد كثيرة كانوا لا يلتفتون لها لولا تنبيهم لها. ولهذا نجدهم يذكرون ما ذكره الزمخشري من أنواع الاستعارات والمجازات والأشكال البلاغية الأخرى، ومن نكات بلاغية عميقة تكشف عن براعة نظم القرآن وحسن أسلوبه[xxxix].

ولو تناولنا مفسراً آخر برع في هذا الجانب من المتأخرين، فلا يمكن تجاوز العلامة الألوسي (1270هـ) وتفسيره المعروف بروح المعاني، فقد برع باللغة العربية، نحواً وبلاغةً، فتمكن من طريقة المقارنة بين النصوص الأدبية في المعاني والتراكيب، مقارنة يتخذ بها من بعض تلك النصوص على بعضها شواهد، وهذا قد وسع من آفاق نظره في المعاني، وبهذا الثروة الواسعة من المعرفة اللغوية تقدم لتحرير تفسيره روح المعاني، فسلك فيه مسلك التفسير اللغوي، يهتم أولا ببيان موقع المفرد أو المركب من جملة الكلام، معتمدا على قواعد الإعراب واستعمالات البلاغة، ومعتصما بانسجام المعاني وتسلسل الأغراض[xl]. يتوسع في المسائل النحوية إلى حد يكاد يخرج به عن وصف كونه مفسراً، ولا يكاد يخلو موضع من الكتاب من دون التعرض للمسائل النحوية[xli]. بل من يراجع كتابه يجد اهتماماً واضحاً في لهجات العرب والاشتقاقات اللغوية والمسائل الصرفية، وتمييز ما هو أعجمي وما معرب، وما هو فصيح وما هو غير فصيح.

ومن النماذج التفسيرية المهمة أيضاً التي انعكس فيها الاهتمام اللغوي؛ تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي (745هـ) فقد كان من أقطاب سلسلة العلم والأدب وأعيان المبصرين بدقائق ما يكون من لغة العرب، ويعد تفسيره من أجمع التفاسير على النكات الأدبية الرائعة التي اشتمل عليها القرآن الكريم وأوفرهم بحثاً

وراء كشف المعاني الدقيقة لكلام الله، ويمكن القول إن تفسيره كان ديواناً حافلاً بشواهد تفسير الكلمات واللغات والتعابير اللغوية والوجوه الإعرابية والقراءات واللهجات المختلفة[xlii].

يقول عنه تلميذه الصفدي في الوفيات: "عارف باللغة ضابط لألفاظها، وأما النحو والتصريف فهو إمام الدنيا فيهما، لم يذكر معه في أقطار الأرض غيره في العربية وله اليد الطولى في التفسير والحديث"[xliii].

ومنهجه اللغوي كشف عنه في مقدمة تفسيره، قال: "وترتيبي في هذا الكتاب، أني أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها، لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب. وإذا كان للكلمة معنيان أو معان، ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة، لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه، فيحمل عليه، ثم أشرع في تفسير الآية"[xliv].

وبهذا يتضح أهمية علم التفسير والمفسرين في حفظ اللغة العربية، فكل هذه التفاسير تمثل إثراءً لها بالدرجة الأساس، وتمثل حفظاً للتراث اللغوي الأصيل كما هو واضح من التشابك الحاصل بين علوم اللغة المختلفة من النحو والبلاغة والبيان في تفسير القرآن الكريم. فعندما يقوم المفسر بعزل الدخيل على اللغة والفصيح عن غيره مثلاً أو يقوم في تفسيره بتعزيز الأمثلة على الاستعارات والمجازات وما يتصل بالأدب العربي ويكرس الشواهد الشعرية ونحو ذلك هذا يعد أحد أهم موجبات وأسباب حفظ اللغة وتراثها وأصالتها.

ونختم هذا المحور الثاني بالغرناطي، ثم نتجه لأحد المفسرين البصريين الذي اشتهر عنهم العلم والأدب، وكان له دور بارز في حفظ التراث التفسيري وحفظ اللغة العربية تبعاً لذلك، وهو إمام التفسير أبو الخطاب قتادة البصري السدوسي.

المبحث الثالث: الإمام المفسر قتادة البصري وأثره في الحفاظ على اللغة العربي

من الذين كان لهم إسهام فاعل في التفسير وفي اللغة العربية الإمام التابعي قتادة البصري (117هـ)، نشأ في مدينة البصرة، ويعد من علمائها.

ترجم له الذهبي في سير أعلام النبلاء، قال: "قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه، وكان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ"[xlv].

وقال أحمد بن حنبل: "كان قتادة أحفظ أهل البصرة لا يسمع شيئاً إلا حفظه؛ قرئت عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها"[xlvi]. وفي تعبير له آخر وصفه بأنه عالم أهل البصرة، قال: "الحافظ أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي عالم أهل البصرة"[xlvii].

ولم يقتصر علمه على التفسير، بل كان له باع في اللغة وأنساب العرب، كما نقل الداودي عنه ذلك قال: "ومع حفظ قتادة وعلمه بالحديث، كان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب"[xlviii]. وكان كذلك عالماً بأشعار العرب، كما ينقل السيوطي عن عامر بن عبد الملك، قال: "كان الرجلان من بني مروان يختلفان في الشعر فيرسلان راكباً فينيخ ببابه، فيسأله عنه ثم يشخص"[xlix].

ولا شك في أن من الأسباب المهمة التي جعلته متقدماً وبارعاً في التفسير هو معرفته الواسعة بلغة العرب وبأشعارهم وإحاطته باللغة العربية عموماً، ولم يكن قتادة مقتصراً على اللغة المشتركة بين عموم العرب، بل كان له علم واسع أيضاً بلغات القبائل ولهجاتها المختلفة، فنراه مثلاً يستشهد بلغة اليمن وبلغة هجر ولغة قريش في موارد من تفسيره[l].

تفسير أبي الخطاب قتادة السدوسي

لم يكن لعالم مثل لقتادة مؤلفات كثيرة، في عصر لم يكن فيه تدوين الكتب والمصنفات متعارفاً، بل كان الشائع في ذلك العصر هو الاعتماد على الحفظ والذاكرة، كما أن فقدان بصره منع من تلك الكثرة، ولهذا لم يخلف آثاراً علمية مدونة أكثر من أربعة كتب رواها عنه تلامذته، هي: كتاب (المناسك) برواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وكتاب الناسخ والمنسوخ في كتاب الله، وكتاب (عواشر القرآن) وكتاب (التفسير) الذي لم تصل لنا نسخة منه بل هو مروي ومتناثر في كتب مؤلفة في التفسير مثل كتاب تفسير الطبري وغيره[li].

وقد أكثر عبد الرزاق الصنعاني (211هـ) من النقل عن قتادة، والمراجع لتفسيره يجد أنه لا تخلو ورقة منه من أثر عن قتادة، حتى كاد تفسيره يكون كله لقتادة، وتفسير عبد الرزاق من التفاسير المتقدمة التي اهتمت بتفسير التابعين، وقدمته على غيره لا سيما ما كان عن مدرسة أهل البصرة، فقد استغرق المروي عنهم ما يزيد على نصف الآثار الواردة في هذا التفسير[lii].

وتبعه ابن جرير الطبري (310 هـ) في الإكثار عن تفسير قتادة، في مصنفه (جامع البيان في تفسير القرآن) حتى تجاوز ما نقله عنه ثلاثة آلاف مورد، وكانت أغلب تلك الأقوال أو كلها يرويها عن بشر بن معاد عن يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة، وهذا يكشف عن أن تفسير قتادة كان تفسيراً كبير الحجم[liii].

وأشهر أسانيد تفسير قتادة في تفسير عبد الرزاق وتفسير الطبري، كما يلي:

في تفسير عبد الرزاق: روى أقوال قتادة عن معمر عن قتادة.

أما تفسير جامع البيان للطبري، فقد روى تفسير قتادة من عدة طرق، أهمها:

الأول: عن بشر بن معاذ عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

الثاني: عن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة.

الثالث: عن محمد بن عبد الأعلى عن محمد بن ثور عن معمر عن قتادة.

وكل رجال الطرق المذكورة لتفسير قتادة ثقات أو ممن تقبل رواياتهم، وأصح الطرق طريق سعيد بن أبي عروبة عند ابن جرير الطبري[liv].

وبهذا يتضح أن تفسير قتادة ثابت فعلاً وإن لم يكن كتاباً مستقلاً، نعم في الآونة الأخيرة جمعت أقواله وآراؤه في كتابين اشتمل الأول على سورة الفاتحة إلى آخر سورة الكهف، لمؤلفه يوسف بن محمد الدكالي، والثاني من أول سورة يس إلى نهاية المصحف، جمعه في رسالة ماجستير للطالب محمد خالد عبد الهادي، من منشورات جامعة أم القرى.

أهمية تفسير التابعين

لا يخفى أن للتابعين أهمية مميزة ومكانة عالية ومرموقة في تفسير القران الكريم؛ بسبب ما تلقوه من معرفة مباشرة من الصحابة الذي كان على تماس مع حياة النبي ومع أقواله وتفسيره للقرآن وللوحي، ولهذا تشكل هذه التفاسير المرجع في تفسير القران بعد تفسير النبي واهل البيت والصحابة؛ ولا يمكن الاستغناء عن تفاسيرهم بوجه من الوجوه، مضافاً لما ورثوه من علوم قرآنية كأسباب النزول وغيرها. ولهذا يمكن القول أنهم أعلم بالتفسير من غيرهم، ومن هنا ذهب بعض العلماء إلى أن مخالفتهم نوعاً من الخطأ في التفسير والابتداع[lv].

قتادة وعلوم اللغة العربية

ذكرنا أن من الأسباب التي قدمت قتادة في التفسير على غيره هو ريادته في معرفة اللغة العربية واطلاعه الواسع على لغات العرب وأشعارهم، كما يؤكد ذلك الذهبي في ترجمته: "ومع حفظ قتادة وعلمه بالحديث كان رأساً في العربية وأيام العرب والنسب"[lvi].

وفي إنباه الرواة: "تابع بصريّ مقدّم في علم العربية والعرب، عالم بأنسابها وأيامها، لم يأت عن أحد من ذلك أصح مما أتى عنه في علم العرب... وقد كان الرّجلان من بنى أمية يختلفان في البيت من الشعر، فيبردان بريداً إلى قتادة بن دعامة، فيسألانه عن ذلك"[lvii].

فإن تضلعه في اللغة العربية، وعدم فساد سليقته كما ينقل سعيد بن المسيب قال فيه: ما أتاني عراقي أحسن من قتادة، ولعدم فساد سليقته العربية[lviii] كل ذلك جعل قتادة أعلم المفسرين التابعين.

وفي وفيات الأعيان: "قال معمر[lix]: سألت أبا عمرو بن العلاء[lx] عن قوله تعالى: (وما كنا له مقرنين)، فلم يجبني، فقلت: إني سمعت قتادة يقول: مطيقين، فسكت، فقلت له: ما تقول يا أبا عمرو؟ فقال: حسبك قتادة"[lxi].

وفي العلل لابن حنبل: "عن سعيد بن أبي عروبة: كان قتادة ربما حدثني بالحديث فينشد بعده بيت شعر أو بيتين"[lxii].

مظاهر التفسير اللغوي عند قتادة

من دون أدنى شك كان قتادة إماماً في اللغة العربية وبصيراً بعلومها وأسرارها وبلاغتها وفصاحتها، متبحراً بلغات العرب المتنوعة، ولهجاتهم المختلفة، واسع المعرفة إلى حد كبير جداً بمعاني الكلمات ودلالات الجمل، ومقاصد الكلام ومغزاه، وهذه الخبرة والفطنة والحنكة والدراية في المجال اللغوي هي إحدى الأسباب الرئيسة لنبوغه في علم التفسير، وعندما نرصد جانب التفسير اللغوي نجده يشكل ركناً أساسياً في تفسيره، ومن أهم مظاهر هذا التفسير اللغوي:

أولا: في بيان معاني الألفاظ والمفردات القرآنية، وما لهذه المعاني من أهمية بالغة في اللغة، فنجده فائق الخبرة في تشخيص مفهوم ومعنى المفردات القرآنية، وفائق الاهتمام في معرفة موقع الكلمة في اللغة، وله في ذلك أساليب مختلفة.

ثانيا: في الاهتمام بالتراكيب اللغوية في الجمل القرآنية، ورفع الغموض الذي يكون فيها، تارة بتوضيح موارد الوقف والابتداء فيها وأخرى في تحديد المتقدم والمتأخر فيها، وثالثة بتحديد مواقع القسم فيها وجوابه، ورابعة يقوم

بتوضيح المعنى المتمم للجملة من خلال تعيين الجزء المرتبط فيها، كما سيتضح لاحقاً في بعض النماذج التفسيرية له.

ثالثا: اهتمامه كثيراً بشرح الأمثال القرآنية لغوياً، وكذلك تشخيص التشبيهات فيها، وأيضاً من خلال خبرته بلغة العرب كان يتجه أحياناً لحمل اللفظ على معناه البعيد المشهور في اللغة.

وجدير بالذكر وقبل أن أختم البحث أنوه هنا إلى أن تشكيل شخصية قتادة العلمية واللغوية والخبرة الواسعة في هذا المجال، كان للحسن البصري دور فيها، فإن قتادة يعدّ من تلاميذ الحسن البصري، وأكثر الرواة الذين نقلوا تفسير الحسن البصري هو قتادة، حيث روى ما يعادل اثنتا عشرة بالمائة من تفسيره؛ وكان قتادة كثير المجالسة للحسن البصري؛ فعن معمر قال قتادة: جالست الحسن اثنتي عشرة سنة أصلي معه الصبح ثلاث سنين ومثلي أخذ عن مثله[lxiii].

فقد عرف الحسن البصري بنشأته البدوية حيث الفصاحة واللسان العربي المبين البعيد عن تأثير المدينة وما يخالطها من عجمة ولحن، ثم تربيته في بيت من بيوت أمهات المؤمنين السيد أم سلمة، ثم تتلمذه المبكر على يد نخبة من أكابر الصحابة الكرام، وكل ذلك جعله متفوقاً ومتميزاً على أقرانه في التفسير وغيره. فالحسن البصري يعني السبك القوي في نظم الكلام والقدرة الفائقة في اختيار أعذب الألفاظ وأكثرها اختصاراً وأبلغها وقعاً في النفوس وأشدها تأثيراً في الأحاسيس، وكما يقول ابن الجوزي، لله دره إنه لفصيح إذا لفظ نصيح إذا وعظ، وروي أن الإمام الباقر (ع) إذا ذكر عنده الحسن البصري قال: "ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء"[lxiv]. وكان من نتاج تلك الفصاحة والتقدم في معرفة لسان العرب ولغاتها أن اتخذه كثير من الأئمة حجة في اللغة واستشهدوا بجمل من كلماته في ذلك[lxv].

وهكذا يشكل الأستاذ مع تلميذه رافداً مهماً من العطاء الفكري والمعرفي والكنز اللغوي يصب في مصلحة اللغة العربية وتراثها وأصالتها.

نماذج تفسيرية لغوية من تفسير قتادة

قوله تعالى: (لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ)[lxvi] قال قتادة: "قد فرطوا في النار أي معجلون"[lxvii].

قوله تعالى: (وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)[lxviii] قال قتادة: " أي دائم، ألا ترى أنه يقول: ولهم عذاب واصب، أي دائم"[lxix].

قوله تعالى: (وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)[lxx] قال قتادة: " قال ترعون"[lxxi]. وقوله تعالى: (انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون)[lxxii] قال قتادة: عن آياتنا أي يعرضون عنها"[lxxiii]. وفي جامع البيان للطبري: عن قتادة: وأنتم داخرون، أي صاغرون[lxxiv]. عن قتادة: "(وعزني في الخطاب) أي ظلمني وقهرني"[lxxv]. قوله تعالى: (ولا تشطط) عن قتادة "ولا تشطط: أي لا تمل"[lxxvi]، وهنا نجده في هذه الأمثلة يعطي المعنى المرادف للكلمة القرآنية، وأحياناً يشرح اللفظ بنحو واضح، مثلاً: قوله: (إنا خلقناهم من طين لازب) عن قتادة، "قال الله: إنا خلقناهم من طين لازب واللازب: الذي يلزق باليد"[lxxvii]. وعن قتادة قوله: "وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه: أي اجحدوا به وأنكروه وعادوه، قال: هذا قول مشركي العرب"[lxxviii]. وأحياناً يكرس قاعدة كلية، مثل: عن قتادة: "إني ظننت أني ملاق حسابيه، قال: ما كان من ظن الآخرة فهو علم"[lxxix].